السلطان محمود الأول

فترة الحكم: ١٧٣٠ – ١٧٥٤

السلطان العثماني الرابع والعشرون

الألقاب والأسماء الشعرية: الغازي، وكامْبُورْ، وسَبْكاتي

اسم الأب: مصطفى الثاني

اسم الأم: السلطانة الوالدة صالحة

محل وتاريخ الميلاد: أدِرْنه، ٢ أغسطس/آب سنة ١٦٩٦

العمر عند اعتلاء العرش: ٣٤ عاما

تاريخ الوفاة: ١٣ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٧٥٤

كان عقيما فلم يعقب أولادا

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول، ودفن في مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بإسطنبول

لوحة زيتية للسلطان محمود الأول.

أُحضر محمود الأول من أدِرْنه إلى إسطنبول بصحبة الأمراء الآخرين الذين كانوا قد نُقلوا إلى أدِرْنه مع أبيهم مصطفى الأول عندما خُلع بعد حادثة أدِرْنه عام ١٧٠٣. وقضى محمود سنوات إمارته في صياغة الذهب في أدِرْنه. ونتيجة لتمرد "بَطرونا خليل" خلَفَ محمود عمه أحمد الثالث على العرش، بعدما اضطر هذا الأخير إلى التخلي عن سلطته في ٢ أكتوبر/تشرين الثاني سنة ١٧٣٠.

وخلال سنوات حكم محمود الأول الأولى حاول تلبية طلبات المتمردين؛ فهُدمت السرادقات والمقصورات التي شيدت خلال فترة التوليب، وأُلغيت الضرائب التي كانت قد بدأت حديثا، وعُين الأشخاص المفضلون لدى المتمردين في مناصب إدارية. لكن السلطان محمود الأول ضاق ذرعا بتلاعب بطرونا خليل وأتباعه بشؤون الدولة كيفما شاؤوا، وحصل السلطان على دعم ضباط الجيش المؤثرين الذين أمدّوه لاحقا بالدعم العسكري ضد المتمردين، وقُضي على المحرض على الثورة بطرونا خليل ورجاله، كما طرد الألبان والانكشاريون الموالون له من إسطنبول إلى بلادهم الأصلية.الانكشارية كما تعامل السلطان شخصيا مع مظاهر الفساد الأخلاقية بشكل عام، ففتش على التجار، وطبق مبادرة حكومية لتثبيت أسعار السوق من أجل حماية مصالح المستهلكين.

وما إن نجح السلطان محمود الأول في قمع الثورة واستعادة النظام حتى حوّل تركيزه إلى العلاقات الخارجية؛ فأمر بشن حملة على الصفويين في عام ١٧٣١، واستطاعت القوات العثمانية المحتشدة في فارس تحقيق انتصار ساحق على قوات طهماسب الثاني بالقرب من همدان، واستعادت تبريز وهمدان.

وعندما طلب الشاه طهماسب الهدنة وقّع أحمد باشا والي بغداد -الذي ترقى لمنصب وزير الدفاع الشرقي- معاهدة معه في عام ١٧٣٢. ووفقا لمعاهدة أحمد باشا احتفظ العثمانيون بمناطقِ كنجه وتِفلِيس وروان وداغستان في القوقاز، بينما كان عليهم التخلي عن مناطق تبريز وهمدان وكِرمنشاه ولورستان. لكن السلطان محمود الأول عارض تسليم تبريز، واستغنى عن كبار الموظفين الذين يؤيدون السلام، وعين مكانَهم من لا يؤيدونه، ثم أعلن الحرب على الصفويين. وعلى الجانب الآخر، قام "نادر شاه" زعيم قبيلة آوشار التركمانية بعزل الشاه طهماسب وتعيين عباس الثالث صغير السنّ حاكما اسميا لبلاد فارس الصفوية، وتولى الإدارة كنائبٍ له في ١٧٣٢. ورفض "الشاه نادر" الاتفاقية وحاصر بغداد، لكنه خسر واستعاد العثمانيون مدينة تبريز، وهنا لُقّب السلطان بلقب "الغازي". غير أن العثمانيين لم يتمكنوا من

الاحتفاظ بتبريز لوقت طويل. فبعد أن هُزمت القوات العثمانية بقيادة عبد الله باشا في معركة "آرْبَاجَايِي" بجنوب القوقاز عام ١٧٣٥، وأصبح احتمال محاربة القوات الروسية واردا، وقّع السلطان محمود معاهدة في عام ١٧٣٦ بناء على معاهدة قصر شيرين المبرمة عام ١٦٣٩. ورَفضت المعاهدةُ الجديدة اعترافَ العثمانيين بالجعفرية كمذهب خامس من مذاهب الإسلام، لكنها اعترفت بنادر شاه حاكما جديدا لبلاد فارس وبتصريحه الرسمي لممارسة الإسلام السني ببلاد فارس.

رفضت روسيا -الحليفةُ الرسمية للنمسا- السماح لقوات القرم بعبور منطقة قَابَارْتَايْ بالقوقاز للوصول إلى فارس من أجل دعم الجيش العثماني. وبُعيد ذلك هاجم الروس حصن آزاق بالقرم في مارس/ آذار سنة ١٧٣٦؛ وفي ظل الهجمات الروسية توصّل المجلس السلطاني العثماني إلى قرار بشن الحرب على روسيا. وفي نفس الأثناء عزم النمساويون على مساعدة حلفائهم الروس وهاجموا العثمانيين عام ١٧٣٧ ليصبح هجوما ثلاثي الجوانب. واستولت روسيا على حصون آزاق وكِيلْبُورون وأوزي فيما استولت النمسا على نيش وبوخارست. وشَعَر السلطانُ محمود الأول بالحزن الشديد بعد سماعه أنباء الهزائم، لكنه كان عليه قتال كل من النمساويين والروس على جبهتين مختلفتين للحرب. فقسم جيشه إلى قسمين رئيسيين لقتال الروس والنمساويين في وقت واحد.

عين السلطان محمود الأول حافظ أحمد كوبريلي زاد واليا عاما على الروملي وأرسله في مهمة استعادة نيش، واتخذت الاستعدادات لاسترداد بلجراد، وتم

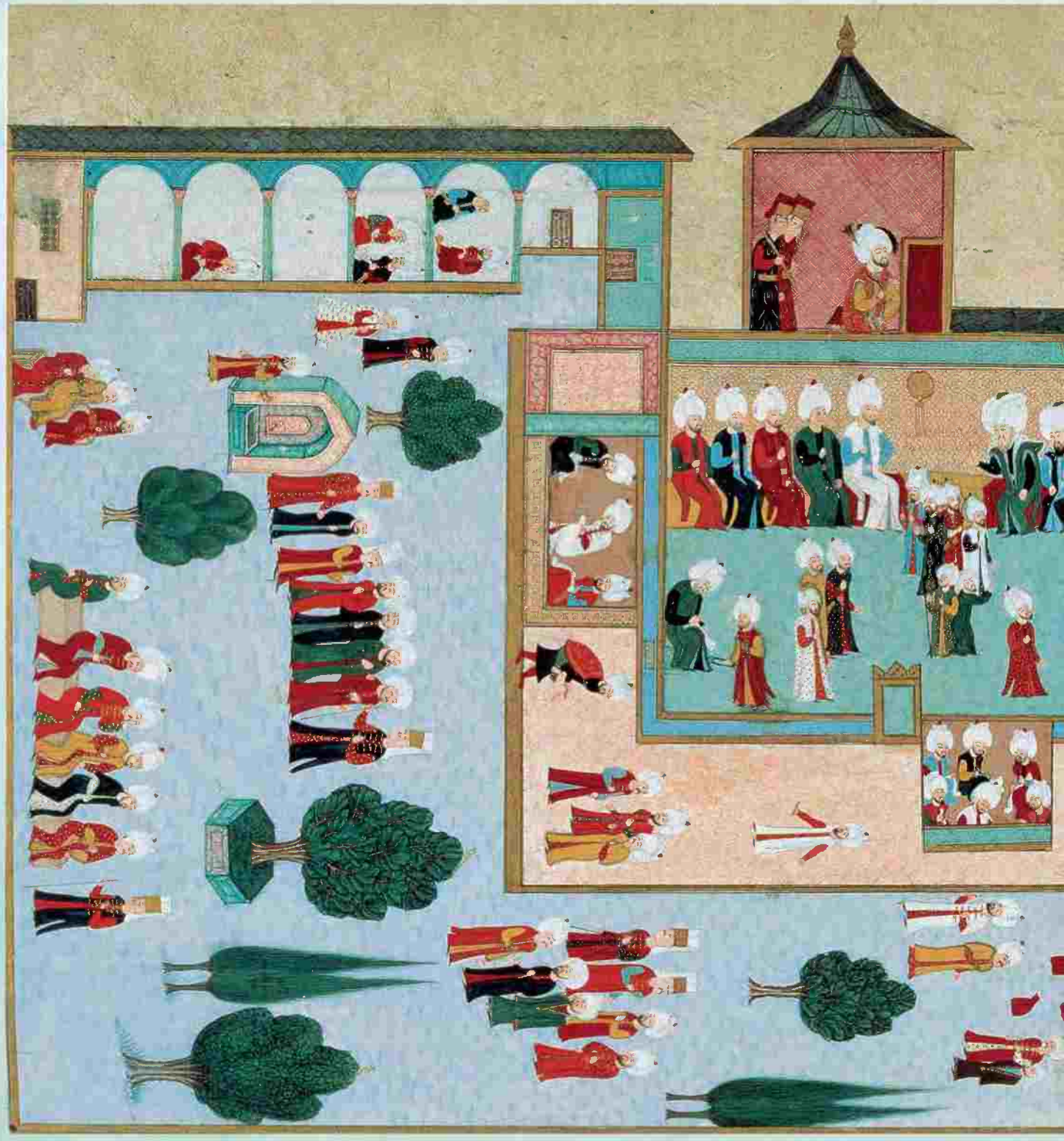

لوحة يفن المنمنمات تصوّر اجتماع الديوان (المجلس السلطاني) في قاعة المجلس.
ويظهر في اللوحة السلطان وهو يتابع اجتماع المجلس من خلف نافذة في الأعلى، فيما تجري الاستعدادات خارج ميدان الديوان.

استرداد نيش بالفعل. ونشبت معارك عنيفة بين العثمانيين والنمساويين الذين هاجموا من منطقة تيميشوارا، فعبر العثمانيون نهر الدانوب وشنوا غارات على تيميشوارا. وفي عام ١٧٣٨ استولى العثمانيون على آداقلعة على نهر الدانوب. ووصل الصدر الأعظم يَغَن (يكَنْ) محمد باشا إلى نيش لاحقا وانتقل من هناك إلى بلجراد.

وعلى الجبهة الروسية صد الجيش العثماني الروس الذين حاولوا عبور نهر دِنْيَسْتَر، وقام الأسطول العثماني بقيادة الأميرال العام سليمان باشا بتدمير الأسطول الروسي وإشعال النيران به.

بعد ذلك قام السلطان محمود الأول بتغيير موظفيه مرة أخرى، وأصبح آيْواز محمد باشا الصدر الأعظم الجديد. وتحدد الهدف الجديد للجيش العثماني فكان بلجراد. وفي نهاية المطاف استرد العثمانيون بلجراد بعد سلسلة من المعارك الضارية، ورفعت النمسا راية الاستسلام. وأجبرت المعاهدة التي تلت ذلك النمساويين على تسليم جميع الأراضي التي حصلوا عليها بموجب معاهدة باسارُوفْجَه (پاساروويچ) (Passarowitz) -عدا منطقة بانات-. وبعد معاهدة بلجراد انسحبت النمسا إلى شمال نهر الدانوب في ١٨ سبتمبر/أيلول سنة ١٧٣٩.

هذا العرش الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة كان هدية من نادر شاه، شاه فارس، إلى السلطان محمود الأول.

وفي هذه الأثناء أرادت روسيا شن هجوم من بيسارابيا. لكن الأسطول الفرنسي كان قد سار في بحر البلطيق بعد التحالف بين السويد وفرنسا، بعد أن توثقت العلاقات بين بروسيا والعثمانيين بشكل واضح، وبعد أن وقع العثمانيون معاهدة تجارية مع السويد. ونتيجة لكل ذلك أصبح الروس في حالة ذعر بسبب تلك الانتصارات بالإضافة إلى التطورات الدبلوماسية والاقتصادية غير المواتية بالنسبة لهم. وعندما أنهى الروس القتال كان عليهم التوصل لاتفاق سلام مع العثمانيين في عام ١٧٣٩. ونصت المعاهدة على الشروط التالية: ١- تستطيع روسيا الاحتفاظ بميناء شريطة أن تهدم حصن أزوف ٢- لا يكون هناك أسطول روسي في البحر الأسود ٣- أصبحت منطقة قابارْتايْ منطقة محايدة. وفي مقابل وساطة فرنسا المؤيدة للعثمانيين في محادثات السلام تمت مراجعة المعاهدات التي تحتوي على ميزات تجارية لفرنسا سابقا وتمديدها في عام ١٧٤٠. وفي نفس العام أبرم العثمانيون معاهدة دفاع مع السويد وأخرى تجارية مع أسبانيا. ونتيجة لتلك المعاهدات، توصل العثمانيون إلى توازن دبلوماسي للقوى فيما يتعلق بأوروبا. كما أدت معاهدة بلجراد أيضا لثلاثين عاما من السلام على الجبهة الغربية. وأثمرت الإصلاحات العسكرية التي أجراها السلطان محمود الأول عن نتائج ملموسة. وقد ثبت أن معاهدة بلجراد هي أكثر المعاهدات مكسبا للعثمانيين من بين كل المعاهدات التي وقعت الدولة العثمانية عليها.

وفي الشرق، ضرب الشاه نادر حصارا على بغداد في عام ١٧٤٣ مطالبا بتسليم المدينة له. فنشبت حرب عثمانية-فارسية جديدة بُعيد استيلاء نادر شاه على كركوك وحصاره لبغداد. ولم تسفر المعارك بالقرب من كارْسْ عن أية نتائج حاسمة. لكن استشهاد "يَغَن محمد باشا" قائد الجبهة الشرقية أحدث تغيرا جذريا في مسار المعركة بالقرب من يريفان. واستطاع الجيش العثماني هزيمة العدو وسقطت كارس. ونتيجة للغارات العثمانية المستمرة على همدان عرض نادر شاه الهدنة على العثمانيين. وأعقب ذلك توقيع معاهدة "كَرْدَنْ" في عام ١٧٤٦ (المعروفة أيضا باسم معاهدة قصر شيرين الثانية) حيث اعتمدت المعاهدة على معاهدة قصر شيرين لعام ١٦٣٩. وقد نصت الاتفاقية أيضا على وجوب احترام الإيرانيين للصحابة وتأمين طريق الحج عبر بلدهم. وأهدى نادر شاه عرشا ذهبيا للسلطان محمود كرمز للصداقة، ومازال هذا العرش

سارية العلم العثماني على شكل نعل الرسول ﷺ، متحف قصر "طوب قابي".

موجودا بقصر "طوب قابي". والغريب أن ذلك العرش المذهل بقي في بغداد لفترة طويلة من الوقت بعد اغتيال نادر شاه، ووصل إلى إسطنبول بعد وفاة السلطان محمود الأول، وكان الذي رآه هو السلطان مصطفى الثالث.

ولما كان السلطان وفيا بوعده ومحبا للسلام فإنه لم يرغب في استغلال حروب الخلافة التي هزّت أوروبا ولا تسيير حملة ضد فارس خلال الصراع الداخلي الذي نشب نتيجة اغتيال نادر شاه.

تعامل السلطان محمود الأول مع الشؤون الداخلية خلال فترة حكمه، كما كافح من أجل تقوية الجيش السلطاني وتحديثه. ولم يحاول السلطان التخلص من فيلق الانكشارية، وإنما اهتم اهتماما خاصا بدفع رواتبهم في ميعادها وأراد إبقائهم تحت سيطرته. واستشار السلطانُ "إبراهيم متفرقة" حول أسباب الهزائم العسكرية وكيفية التصرف حيالها. وردا على ذلك كتب "إبراهيم متفرقة" نصيحته في كتابه الشهير "أصول الحكم في نظام الأمم". وفي ضوء مقترحات "إبراهيم متفرقة" أوكل السلطان لأحمد باشا هُمْبَاراجِي (أي الجندي بسلاح المدفعية، وهو اسم "الكومت دي بونيفال" الفرنسي بعد اعتناقه الإسلام) مهمة تحديث وحدات المدفعية (همباراخانه). وبعدها افتتحت الكلية السلطانية التقنية (المعروفة أيضا باسم همبارخانه، أو بيت صنع القنابل) في أسكودار بإسطنبول، فكانت نواة لكليات الهندسة لاحقا.

خلال عهد السلطان محمود الأول اكتسب الأعيان أو الوجهاء المحليون سلطة كبيرة؛ فطغوا وتحكموا في سكان الأقاليم، فأصدر السلطان مرسوم عدالة للدفاع عن الشعب ضد الظلم. كما سعى السلطان أيضا للموازنة بين دخل ومصروفات خزانة الدولة، ومن أجل تحقيق هذا المشروع المالي قام السلطان بسداد الديون، وتأسيس السَّنَة المالية وفقا للتقويم الميلادي بدلا من التقويم الهجري. وشهدت الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الأول آخر فترات السلام والرخاء في القرن الثامن عشر. فقد سعى لإقامة علاقات دبلوماسية متماسكة ووقع في النهاية

خنجر "طوب قابي"، يعود تاريخه إلى عام ١٧٤١

مشهد لقصر كُوكْسو من البوسفور.

معاهدات ناجحة وحاسمة تركت لمن خلفه من السلاطين سنوات طويلة من السلام على الجبهتين الشرقية والغربية. وتوفي السلطان محمود الأول على فرسه بقصر "طوب قابي" وهو في طريق عودته من صلاة الجمعة يوم ١٣ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٧٥٤.

كان السلطان يهتم كثيرا بشؤون الدولة، واعتاد على حضور اجتماعات ديوان وزرائه الذي يعقد في "قُبَّه آلْتِي" (قاعة المجلس)، وكان يناقش شؤون الدولة مع أعضاء المجلس السلطاني[٢٦] وكذلك الشؤون العامة.

كان السلطان محمود الأول شخصا طيبا وعادلا وذكيا ومحبا للسلام وذا شخصية تحظى بالاحترام كما كان مسلما متدينا. كتب قصائد باللغتين التركية والعربية، ولحّن بعضا منها. وكان يستمتع برمي الرمح وسباقات الخيل. ومن بين عاداته المهمة خروجه إلى المضيق ليشاهد ضوء القمر؛ لأنه يذكره بالرسول ﷺ.

بدأ السلطان عدة مشروعات إنشائية في إسطنبول مثل مجمع المباني الخيري الضخم الذي يسمى "نور عثمانية" بالقرب من السوق الكبير، والذي استكمل في عهد أخيه وخلفه السلطان عثمان الثالث، فسمي باسم

[٢٦] كان المجلس السلطاني يضم كبار المسؤولين بالفروع المختلفة لطبقة الموظفين بالإضافة إلى الوزراء.

الأخير. وكان المجمع يسمى "العثمانية" في الأساس، لكنه أصبح "نور العثمانية" مع الوقت، وذلك لوجود نقش الآية القرآنية ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴾(النور:٣٥) داخل قبة المسجد بالإضافة إلى وجود قطع من الزجاج الملون المتشابك وشبابيك من الزجاج الشفاف، مما يسمح بدخول كمية كبيرة من الضوء داخل المسجد، كل ذلك أدى إلى تسميته بهذا الاسم. ويتكون مجمع المباني من مكتبة تحوي مخطوطات نادرة معظمها من المجموعات الشخصية للسلطان محمود الأول والسلطان عثمان الثالث، بالإضافة إلى مدرسة ومطعم للفقراء وسبيل مياه وبعض المتاجر وضريح السلطانة الوالدة شاه سوار والدة السلطان عثمان الثالث.

شيد السلطان محمود الأول "قصر "طوب قابي" الساحلي" على سواحل قصر "طوب قابي" الحالي. وأطلق اسم ذلك القصر لاحقا على مقر الحكومة الأكبر حجما وشهرة بعدما دمرت النيران قصر "طوب قابي" الساحلي.

قام السلطان بترميم عدد كبير من المساجد الكبيرة والصغيرة في جميع أنحاء البلاد، كما شيد مسجد حاجي كمال الدين في روملي حصاري وميناء العرب في بَشِكْتَاشْ، وكلاهما على الجانب الأوروبي من نهر البوسفور، بالإضافة إلى مسجدي السلطان محمود وقَنْدِيلِّي في أوسكودار على الجانب الآسيوي. وحوّل مدفن كورْشُونْلُو إلى مسجد (يعرف اليوم باسم "يَرْآلْتِي" أو "المسجد تحت الأرض")، وأعاد رسم حدود المسجد ليشمل الأضرحة القريبة الخاصة ببعض صحابة الرسول ﷺ كما أشرف السلطان أيضا على إمدادات المياه بالحضر، وخصوصا السدود والقنوات المائية التي بناها ووجهت المياه الصالحة للشرب إلى شبكة من أسبلة المياه في جميع أنحاء المدينة. وأنشأ السلطان محمود الأول أيضا خزانا في الجزء الأوروبي من العاصمة، وقد اشتق اسم أكبر منطقة سياحية وتسويقية في إسطنبول اليوم، والتي يطلق عليها "تقسيم" (بمعنى "القسم" أو "التوزيع") من ذلك الخزان الحجري، حيث تتجمع خطوط المياه الرئيسية من شمال إسطنبول ثم تتفرع إلى أجزاء أخرى من المدينة.

ومما يُروى عن والدة السلطان محمود الأول السلطانة الوالدة صالحة أنها كسرت إبريق فخار لها لما أسقطته في الشارع عندما كانت فتاة صغيرة. ورأت امرأة من القصر الصغيرة صالحة سلطان منخرطة في البكاء فواستها وساعدتها على دخول القصر. وفي القصر تلقت صالحة سلطان تعليما ممتازا، وتدربت على الآداب العثمانية الرفيعة، وتزوجت أخيرا من مصطفى الثاني. وعندما أصبحت صالحة سلطان السلطانة الوالدة امتلكت الموارد لبناء سبيل مياه رائع سمي "سبيل السلطانة صالحة" بمنطقة "عذاب كابي" بإسطنبول، تماما حيث وقعت وانكسر منها إبريقها منذ فترة طويلة. وشاركت السلطان الوالدة صالحة سلطان في حفل افتتاح سبيل المياه وأمرت بمَلئه بالماء لأول مرة.

وفي عهد السلطان محمود الأول أيضا افتتحت دار الكتب، واحتوت تلك المكتبة على مجموعة غنية من المصادر، وبخاصة في التاريخ، للاستخدام في غرف الدولة لجناح ريفان بقصر "طوب قابي". وبمرور

الوقت جمعت المكتبة مجموعة غنية من المخطوطات النادرة التي قدمت للسلطان والتي لا توجد لها نسخ ثانية. وعلاوة على ذلك رعى السلطان بناء المكتبات في بلجراد وفِيدِين على نهر الدانوب، وكذلك المساجد السلطانية بإسطنبول، كما أشرف على نقل المخطوطات النادرة من الأقاليم لهذه المكتبات. وافتتح دارا للندوات بالقرب من مسجد الفاتح لدراسة صحيح البخاري.

كان السلطان رجلا محبا للخير، فقد أمر بإتاحة أثر قدم الرسول ﷺ التي كانت بجناح الآثار المقدسة بقصر "طوب قابي"، لزيارة الجمهور من خلال وضعها داخل حزام من الرخام في ضريح أبي أيوب الأنصاري، على الجدار الذي يواجه القبلة. وأهدى المسجد الحرام بمكة المكرمة شمعدانات وثُريّات قيمة، كما أجرى إصلاحات واسعة النطاق على أسوار المدينة المنورة.